# العقاد

في

# محراب الحب والجمال

أ . د / صفوت زيد

رئيس قسم الأدب والنقد

عرف العقاد على مستوى الجماهير بأنه عدو المرأة ..... لأنـــه تنـــاول قضيتها- فيما ادعته لنفسها من ضرورة المساواة بالرجل - بالنقد والتجريـــح والتشهير ، بلغة حادة وعنيفة ظهرت واضحة فى مقالاته ، وفى كتبه التى ألفـــها فى هذه الناحية ..... والتى دار حولـــها جدل كثير ، بين مؤيدين ورافضين .

وأذكر أن آخر انفجار سجله العقاد ، فهز الأركان فى كـــل مكـــان ، كان قبيل وفاته بقليل ، عندما سجلت المراصد الأدبية حديثه التليفزيونى ، الذى ارتاد فيه مجالات واسعة من حياته الخاصة ، وتجاربه الأدبية والفكرية ، ورأيـه فى المرأة وقضيتها .

وقد أعلن أنه لا يضمر لها العداء ..... ولكنه يفهمها أحســـن فـــهم ، ويرى أن مكانها البيت ..... وأن الطبيعة قد أرادت لهـــا ذلـــك لأن تركيـــب جسمها صنع من أجل إنسان آخر ..... وثلاثة أرباع قواها ، قد خلقت مـــن أجل الطفل ، الذى ستحمله وترضعه وتربيه ، ولأن كل شئ فيها يحتم عليها أن تتبع إنساناً آخر ، وأن تخضع لوجود إنسان آخر ... زوجها ، أو ابنها .. فـللرأة مخلوق يجب أن يظل ملحقا بالرجل . وهذه طبيعتها وهذا هو تاريخها .

وقد تسبب هذا الموقف من العقاد فى خصومات كثيرة ، واجهها بقـــوة الفكر وقوة الإبانة .. ومع ذلك لم يسلم من الاتهام الذى ألصق به حتى إن كاتبة أديبة أعلنت أن الأستاذ العقاد ألف كتاب "هذه الشجرة" فى فترة عداء كبـــير لامرأة من النساء "[1] .

وكان من آثار ذلك على العقاد ، أن صارت تلك العـــداوة المدعـــاة حجابا كثيفا ، وقف حائلا دون الخطو على درب العقاد المبدع ، فى جنبـــات

---

([1]) الجمال والحرية والشخصية الإنسانية فى أدب العقاد . د . نعمات فؤاد ص ١١٦ .

شعره ، وفيض إلـــهامه ، وذوب قلبـــه ، وحياة نفسه فلم يعرف النـــاس عنـه إلا تلك العداوة المدعاة ـ كما قلنا ـ للمرأة .

ولو أنهم أزاحوا عن أعينهم وأفكارهم حجاب تلك الغشاوة ، وتجولـوا فى عالمه الشعرى ، لعلموا علم اليقين زيف تصورهم وضيق أفقهم .. لأنهـــم فى ذلك العالم الشعرى ، سوف يجدون رجلا تعلق بالمرأة كما لم يتعلق بها أحـــد .. وأحب المرأة كم لم يحبها أحد .

إن العقاد عاش تجربة الحب بكل ما فيها من معاناة وأشواق وزفـــرات وأشجان . فأصابه ما أصاب العشاق من لفح وهجران ، وعذابات وحرمـــان ، ونعم مثلهم بالوداد والإسعاد ، فى رحاب من أحب ، وفى دفء لقائـــه وجـــد نفسه ، وهناءة قلبه .

وتذكر مدونات تاريخه ، أنه عرف كثيرا من النساء من بيئات شـــتى فى سنى عمره الطويلة على امتداد الشباب وضعف المشيب . فقد عرف "مـــى" ، "سارة" ومن أطلق عليها "الفاتنة السمراء" .

ومن كان يطلق عليها فى مشيبه كلمة "بنية" وغيرهن مما أفاض فى ذكره والحديث عنه كثير من المؤرخين والكاتبين [1] .

والذى يعنينا هنا بالدرجة الأولى طبيعة تجربته العاطفية ، ورؤيته الخاصة للحب والمرأة ، ومدى تجاوب تلك الرؤية مع ما تأثر به من تيار الرومانســـية ، الذى تسلل إلى حياتنا العربية .. والذى بنى العقاد وزميلاه دعـــائم وجهتـــهم التجديدية على أسس أصيلة منه ، فصدروا عنه فيما أبدعوا من شـــعر ذاتـــى

---

(1) انظر فى تفصيل ذلك . ذكريات ومطالعات .. للعوضى الوكيل . وعبقرية العقاد للدكتور عبد الفتـــاح البدوى . والمرأة فى حياة العقاد . للدكتور عبد الحى دياب وغيرها من المجلات والصحف .

وجدانى له مذاق جديد ، ونغم فريد ، كانوا به طليعة الرومانسية فى الشعر الحديث ، بعد رائدها خليل مطران .

## الحب فى رؤية العقاد

ضرورة من ضرورات الحياة لا حياة للمرء بدونها ، وقيمة عليا تملأ الزمان والمكان بالحركة والوجود ، ودليل مادى على سمو الروح ، وحاجة الإنسان إليه أشد من حاجته إلى الطعام والشراب ، وسائر ما تقام به الحياة .

وقد رأينا جوانب تصوره له تتعدد وتتسع فى زوايا كثيرة لكنها فى النهاية ، تصل بنا إلى أنه أغلى وأعلى قيمة فى الحياة..

فهو وسيلة الفانين إلى البقاء والكمال .. وإذا كان نصيب الخالدين قد فاتهم ، فلديهم من سعادة الحب وحياته ما يجعلهم أكثر نعيما وبهجة بما ربحوا وما غنموا .. ومن حقهم أن يزدهوا بما نالهم من الحب ، كحق الخالدين فى الفخر بخلودهم استمع إليه يقول [1] :

ما الحب . ؟ ما الحب إلا أنه بدل
من الخلود .. فما أغلاه من بدل
نزهى به حين يزهى الخالدون بما
نالوه من أبد باق ومن أزل
داموا فلما تقاضينا الدوام لنا
قالوا لنا : حسبكم بالحب من أمل

وهذا الأمل المحبب قدر مقدر ، ولا حيلة للإنسان فى دفعة ، ولا فى اكتسابه .. وما دام الأمر كذلك ، فكيف يستطيع دفعه ، وإخلاء الحياة من

---

(1) ديوان العقاد ص ٣٤٦ .

نوره وناره ، وهو الذى آمن بقدريته كالموت لا حيلة لنا فيه ، ولا سبيل إلى النجاة منه ؟!

وقد أكد العقاد هذه الحقيقة ، فى كثير من نثره وشعره حيث يقول : " وخلاصة التجارب كلها فى الحب أنك لا تحب حين تختار .. ولا تختار حين تحب .. وإننا مع القضاء والقدر حين نولد .. وحين نحب .. وحين نموت " [1] .

وهو فى ذلك متأثر بالقدريين .. فقد كانت رؤيتهم للحب محكومة بمنطق القضاء والقدر ..

**يقول جميل بثينة :**

لقد لامنى فيها أخ ذو قرابة حبيب إليه فى ملامته رشدي
فقلت له قضى الله ما ترى على .. وهل فيما قضى الله من رد

ولاشك أن الإنسان لا يملك إلا التسليم والإذعان أمام المشيئة العليا ، وسلطانها الممتد على كل شئ فى الكون .. ولا يملك إلا الرضا عن طواعية وإقبال .. خصوصا وأنه لا يستطيع دفع مشيئة قدرية .

**ولأجل ذلك قال [2] :**

لست ألحى على الهيام فؤادى قدر الحب دفعه لا يطاق

وإذا كان للعقيدة الدينية فى نفوس معتقديها ولاء يجعلها أغلى ما يعتز به الإنسان ويحميه .. كما يكون على استعداد لبذل الروح فى سبيلها فداء لها .. فكذلك الحب ، جعله العقاد دينا يدين به ويخضع له .. وما دام الأمر على هذه

---

(1) أنا ... للعقاد ص ١٨٩ .

(2) ديوان العقاد ص ١٤٠ .

الدرجة من القداسة فلابد أن تكون محبوبته ربة الحب وقبلة الجبين التى إليها يتوجه .. إنه يقول [1] :

يا ربة الحب كلمينى إنى على طورك المكين
أو فاهمسى لى باللمح سرا همس فطين إلى فطين
أدين بالحب فهو دين لكل من دان باليقين
ورب ليل سماجينى إليك يا قبلة الجبين

ومن نبع الدين وقاموسه كان الفرض وكانت السنة .. فإذا كان للديانة فرائض مرعية على سبيل الإلزام واللزوم .. فالهوى فرض وطاعته واجبة .. والويل كل الويل لمن يعصى ويخالف .. ومن ذا الذى يستطيع المروق من سلطانه ، بعد أن يرى معالم الحسن فيه .. ؟

ولخشية الويل الذى قد يلحق الشاعر إذا ما خالف فرضا مفروضا فى شريعة الدين ، راح يعلم أنه أطاع رعاية لوجه الحب مسلما بأن الأمر كله من إرادة الله ، الذى أبدع وصور . يقول [2] :

رباه كيف خلقته رباه من ذا يراه ولا يضل هداه
إنى أطعتك فى رعاية وجهه يا ويح من يعصى .. ومن يرعاه
يا رب ما أبدعت فى تصويره إلا لأنك قد فرضت هواه
هذا رضاك ولو أردت وهبتنا قلبا يصم إذا الغرام دعاه

ومن محيط الديانة وما يدور فى رحابها من نعوت وصفات ، راح شاعرنا يستمد رؤاه من قاموس القداسة وقدرتها الفاعلة فى الخلق والإيجاد والإحياء

---

(1) السابق ص ١٠٣ .

(2) السابق ص ١٤٦-١٤٧ .

والإماتة على سبيل المجاز ..... إذ ما دام قـــد رأى أن للحـــب ربـــة ، ومـــن مستلزمات الربوبية القدرة الخارقة ، فلا مانع عنده أن يكون للحب ســـــلطان الإحياء والإماتة ، والأسر والتسريح ، والتحكم فى حياة العاشقين ومقدراتهـــم ومن هنا أعلن [1] :

الحب محـــى للنفـــوس وقـــاتل ومســـرح للعاشـــــقين وآســـر

ولأن حجم السعير الذى يصيب العاشقين بلهيبـــه الحـــارق ، وحممـــه المشتعلة ، قد يرهقهم من أمرهم عسرا ، ويجعلهم يضلون على دروب الحيـــاة ، لا يدرى الواحد منهم أين يحط رحاله ، راح يطلب من باعثة الحب أن تجعل من نفسها منارا يهتدى على ضوئه السائرون .. لأن الحب بحر لجـــى ، وقلـــوب العاشقين فيه كسفينة تخترق عباب الماء ، وسط أمواج متلاحقة ولن تســـتطيع الوصول إلى شاطئ الأمان إلا على نور مبين وربان أمين . ولهذا يتوسل إليـــها بقوله [2] :

كـــونى منـــاراً فـــالحب بحـــر قلوبنـــا فيـــه كالســـــفين

وعلى ذكر الماء نعرج إلى زاوية فى التصور ترتبط به .. وإن كان مـــاء من نوع فريد .. يستوى فى النهل من معينه من أسكره كثرة الرواء .. ومـــن اشتد بهم الظمأ إلى رحيق هذا الماء .. إنه الحب فى كل حالاتـــه .. فى ســـعوده الدافئ وشقائه المحمود . يقول [3] :

---

(1) السابق ص ٢٠٩ .

(2) السابق ص ١٠٢ .

(3) السابق ص ٢٩٠ .

إنما الحـــب شـــراب عـــاصف يسكر الراويـــن منـــه والظمـــاء

ومن عجيب أمر العشاق أن لهم فى كل شئونهم ما يدعو إلى الدهشـــة ، ويثير كثيرا من الغرابة .. فالمرضى والمصابون بالأوجاع يودون لو بقيت لهـــم سلامة الصحة ، وزحزحت عن كواهلهم حمول الأوصاب والآلام .. وهـــم فى سبيل تحقيق هذا الرجاء على استعداد لبذل أى شئ يفتح الطريق للسلامة ..

أما المصابون بداء الحب فهم فى هناءة تامة بهذا الـــداء ، ولا يرجـــون لأنفسهم طوال العمر منه شفاء .

وقد حرص العقاد على إبراز هذه الزاوية فى تصوره للحب فى أكثر مـن موضع من ديوانه .

فرأيناه . يتحدث عن محبوبته فى شئ من الشـــغف واللـــهف ، مـــبرزا محاسنها وآثار حبها على وجده وقلبه ، فى صور شعرية رائعة عندما يقول [1] :

تتهادى ويح قلبى فى خطـــاك ..... لســـــــــت تدرى
لست تدرى أى نـــــــــار إذ أراك ..... ضمن صدرى
ضاحكا يفتر نور البشـــــــــــر عنكا ..... كيف تعلم
أن قلبا دون قيد الرمح منكـــــــــــا ..... قد تحطم

ثم يقول :

زده داء لا شفـــى الله جـــــــواه ..... كم أســـــاء
مـــــن دعاه للتصابـــــــــــى من دعاه ..؟ ..... زده داء

فهو كما ترى يطلب مزيدا من الداء ، وأن لا يشفيه الله منه ، لأنـه داء محبب إلى النفوس ، فيه تحيا وعلى هدى من سناه ترتقى وتسمو .

---

(1) السابق ص ١٧٤

وإذا طلب الشفاء فليس معنى ذلك أنه يرجو البرء منه وإنما يتطلع إلى الوداد والوصل فذلك سبيل البقاء وطريق السعادة . ولهذا راح يلح عليها بقوله [1] :

اشف وجدى .. داو قلبى .. روِنى بكئوس الحب ترياق البقاء

وإذا كانت هى سبب الداء .. فهى أيضا السبيل إلى الشفاء وتستطيع أن تخفف من عنت ما يجد من هجر وحرمان .. ولهذا عجب من أمرها عندما توجهت إلى الله بالدعاء له أن يشفيه من أوجاع الحب وقد علمت أن شفاءه فى يديها فالحب داء ، وهى له شفاء ورجاء . يقول [2] :

أيها الداعى إلى الله لنا ما ترى فى دعوة منك إليك
أنت لو تعلم دائى فى غنى عن نداء الغيب والطب لديك
تسأل الله شفائى ولقد جعل الله شفائى فى يديك
وترجى نظرة لى من عل ورجائى كله فى ناظريك
فادع لى نفسك أولا فادع لى رحمة الرحمن من وجدى عليك

إذا كانت ولابد داعية ، فلتتوجه إلى الرحمن أن يتجلى برحمته عليه من وجده عليها .

وعلى الرغم من كونه داء له فى القلوب جراحات ودماء . إلا أنه مطلب الحياة وباعثها .. فحينما وجد وجدت .. وأينما حل عمرَ أثمر .. ولهذا كان نداؤه [3] :

---

(1) السابق ص ٢٩١ .
(2) السابق ص ٣٣-٣٣٤ .
(3) السابق ص ٣٦٩ .

فعـــش بـــالود فى قفـــــر يعمـــــر قلبـــك الـــــود
إذا مـــا حـــل فى قلـــب فليـــــس لغـــــيره ود
هـــو الدنيـــا .. هـــو الأخـــرى هـــو العيـــش .. هـــو الخلـــد

ويستمر احتشاد العقاد فى رسم وتتبع كل جزيئات الصـــورة البديعـــة للحب ، وبيان قدره للحياة والأحياء ، فى رؤية دقيقة لكل الملامح والزوايـــا ، مستعينا بكل الظلال والألوان التى تجلى أبعاده ، وتوضح حدوده .

فيعرض لنا احتشاد الكون كله ممثلا فى الأرض والسماء وما فيهما مـــن خلائق ، انتظاراً لمقدم هواه وقد اكتستا بكل ما هو جميل ، وازينتا بكل ما هـــو بديع كى تبدوا كأبهى ما يكون إشراقا وبهجة . يقدم لنا هذا الاحتفاء وكأنه أمر واقع ، فى أسلوب خبرى فيقول [1] :

إن السماوات والأرض الـــتى ضمـــت خليقة الله فى ثـــوب الجديديـــن
لفى انتظار هوانـــا كـــي تلـــوح لنـــا فى خير ما أشرقت يومـــا لعينـــين

ولما كان للحب هذه المنـــزلة ، وتلك القداسة ، وهذا العطاء ناسبه أن تكون مكونات الصورة من ألفاظ تتلاءم وقدسية النظرة ، وسماوية التصور .

وقد رأينا ذلك جليا ، فى حشد هائل من الألفاظ المعبرة عـــن طبيعـــة الفهم العميق للحب ، من خلال ما عرضنا .

ونستطيع أن نلمس ذلك بوضوح فى مثل قوله [2] :

إنى لمحراب الأســـى فهواجســـى تأبى الطهور بغـــير دمـــع دافـــق

---

(1) السابق ص ٣٥٢ .
(2) السابق ص ١٠٦ .

فالأسى له محراب .. والدموع وسيلة اغتسال وطـــهاره ، وشـــاعرنا بطبيعة تكوينه سماوى المتجه يرى نفسه دائما من سكان السماء .. استمع إليـــه يقول [1] :

إذا ما نظرت السحب تسرى عشـــية وبدر الدجى يخفـــى هنـــاك ويظـــهر

توهمـــت أنى فوقـــها متطلـــع إلى الأرض .. لا أنى من الأرض أنظر

وإذا حدث وخطا بقدميه على الأرض ، فليس ككل الناس .. بل هـــو عابد يظل طوال ليله قائما لا يهجع ، فى صلاة ولا فى تسبيح ، وقد تعود علـــى الأنس بقبس من نور ، يعيش معه الأمان ثم وجد نفسه فجأة بلا أنيس ، عندمـــا ذبل السراج ، وانطفأ ضوءه فحل الخوف محل الأمن ، وحل الظلام محل النور .

وما هو فى الحقيقة إلا ذلك العابد .. وهى ذلك النور .. يصور العقـــاد ذلك بقوله [2] :

هبينى امرءا فى قبلة الوحـــى قائمـــا طـــوال الليـــالى قانتـــا يتـــهجد

رأى قبســـا يعتـــاده ثم أطبقـــت عليـــه ســـتور فـــهو لا يتوقـــد

وعندما يشتد إحساسه بالغربة ، وقد طواه اليأس من عناء جهده الجهيد ، فى البحث عن السعادة على الأرض . يلوذ بالطبيعة ، ويتمنى أن تهبه حبا سماويا ملائكيا يجد فيه دفء الحياة ، وأمان كل حين .. وفى ذلك خيال رومـــانتيكى رائع وبديع يعبر عنه بقوله [3] :

---

(1) السابق ص ٨٦ .

(2) السابق ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .

(3) ديوان العقاد ص ٧٦ .

يا واهب الليل بـــدرا هـــب لمشـــبهه بدرا يضئ له والقلـــب غيمـــان
أنا القريب ولى بـــين الـــورى رحـــم بالرغم منى وأصحاب وجـــيران
وابعث لنا الحور فالإنسان ليـــس لنـــا بخالص منه أصحـــاب وأخـــدان
أو الكواكـــب ســـربا بيننـــا غـــزلا إن الفضاء بذاك السرب مـــلآن

ولعلك تعجب معى من هذا العملاق القوى صاحب العظمة فى كبرياء ، كيف ينـــزله الحب من عليائه الأعلى خاضعا ذليلا . إلى هـــذا الحـــد ، وقـــد أصبحت أغلى أمانيه ، أن يجد له مكانا مع من يحب فى الأرض أو فى السماء .

وليس أدل على ذلك من اعترافه بنفسه على نفسه .. والاعتراف سيد الأدلة كما يقول القضاة .. استمع إليه معترفا وهو يقول [1] :

آه .. لـــولا صبابـــة وغـــــرام قـــد شـــربناه والكئـــوس دهـــاق
مـــا غدونـــا ولى فـــؤاد كســـير وجبـــين ســـيماؤه الإطـــراق

وهو الذى ما نكس الرأس ولا عرف الخضوع إلا للـــــذى إليـــــه الرجوع .. لكن سلطان الهوى سباه ، وعلى دربه سارت خطاه فخضع القلب ، وذاب الفؤاد حتى أصبحت السعادة كل السعادة أن يخلو بمن يحب [2] :

يا سائلى أين السعـــادة أيـــــن صفـــــو العيش أين .. ؟؟
إن السعـــــادة لـــــن تـــــراهـــــا فـــى الحياة بمقلتين ..
خلقت لأربع أعيـــــن تـــخـــلـــو بـــهـــــا ولمهجتيـــــن
فانظر بها أو لا فلا تغنيك عنها ألف عين

---

(1) السابق ص ١٤٠ .
(2) السابق ص ٢٦٧ .

وعلى سنة المحبين من هذا الاتجاه الرومانسى فى الإحساس باللذة فى العذاب ، وبالسعادة فى الحرمان ، صدر العقاد فرأيناه يعلن على مسامع محبوبه [1] :

ليس ابتعادك عن هواى بمبعد عنى هواك وليس منعك مانعى
إنى لألتذ الصدى وأطيله شوقا إلى برد الشراب الناقع

فليس بعاد المحبوب مانعا من دوام الحب .. بل إنها لو منعت نفسها ، ما امتنع عن حبها لأنه قدر مقدر .. فإذا بعدت ونأت فلن يكون ذلك سببا فى جفاء ، بل سيزيد الحب اشتعالا ، وسيزداد هو سعادة ولذة .. فانتظار الوداد ألذ من وجوده ، لأن فى ذلك الانتظار تتوهج القلوب ، وتنصهر النفوس ، فتشف وترق وتسمو .

ومن هنا كان الألم لذة ، والحرمان سعادة ، والسهد نعمة يرجوها ويسعد بما استمع إليه يقول [2] :

خذوا .. خذوا النوم واتركوا لى تيقظ العاشق الفريد
من كان بالسهد فى شقاء فإننى الساهد السعيد

ومن خلال كل ذلك لا نشعر بوهج الجنس ولا بلفح الغريزة . ولا نشم عبير نزعة مادية تدل عليها المعانى والمقاصد .. إلا ما سوف نجده فى بعض جوانب التجربة الإنسانية مع المرأة من بعض الإشارات الحسية ، مما لا يخلو منه ديوان شاعر .. لكن تلك الإشارات لا تمثل شيئاً ، إذا ما قورنت بهذا الكم الهائل من شعر الحب ، الذى يمثل النزعة الرومانسية فى جانبها الغالب وخطها المرسوم ..

---

(1) السابق ص ٣٥٢ .

(2) ديوان العقاد جـ ١ ص ٣٤٧ .

فقد كان العقاد "يسمو بحبه نحو الجنان ، ويرتفع بنظره إلى آفاق أخرى فى الغزل حيث يرفرف إلى جوار القلب وهذا جميل عذب يدلنا على عفة وشرف" [1] فدفع بذلك شعر الحب إلى التجرد عن المادة إلا قليلا ، ولم يعد الحب عنده وصف الثغور ، والخدود ، والعيون ، والجياد ، والقدور ، والسيقان ، والأرداف .. بل أصبح وصف الروح والشمائل .. لأنه أحس أن فى الحديث عن الجسد تعبيراً مباشرا عن الغريزة الحيوانية النوعية .. وهو تعبير ينبغى أن يرتفع عنه الشاعر إلى وصف مشاعره تلقاء المرأة وهنا يترقرق- فيه العطف والحنان .

وكان من مبادئ مدرسته : أن الشعر ينبغى أن يكون تعبير النفس لا تعبير الحس .. وتعلق ذلك فى ضميره بإيمانه أن الشعر ينبغى أن يدفع الأمة نحو الحياة المهذبة ، التى تعلو فيها نزعات الروح على نزعات الجسد [2] .

ولاشك أنك - عزيزى القارئ - قد وجدت نفح التصور المثالى للحب قد تجلى فيما عرضنا لك من زوايا الصورة ، فى جميع مجالاتها حتى اكتملت روحانية خالصة منزهة عن كل ما يتصل بأرضية النظرة ودونيتها .

كما أنك وجدت العقاد يعتنق الحب دينا لا يرتد عنه ، وإن عاش غصص الهوى ونار الغرام .. ولم يفارقه ذلك حتى فى سنوات المشيب فقد كان ينفى أن يكون لشعر الحب حد زمنى فى حياة الإنسان لا يتجاوزه .. لأن عواطف الإنسان خالدة فيه .. وأن الشيخوخة ربما أعانت على النظم فى الغزل بأكثر مما يعين الشباب .. إذ تهدأ فيها ثورة العواطف المستعرة التى تبلبل النفوس ..

---

(1) الغزل : د. سامى الرهان ص ٨٣ بتصرف .

(2) انظر : مع العقاد د. شوقى ضيف ص ١٤٤ .

وفيها أيضا تتعمق تجربة الشاعر ، ويتعمق فهمه للحياة الإنسانية ، وما يـدور فى قلب المحب من مشاعر .. وإذا فاتت شاعر المشيب حرارة الغزل ، المستمدة من حرارة الشباب فإنه لن يفوته استكناه أسرار الحب والنفوذ إلى لبابه وجوهره .. وإذا فاتته قوة الأسلوب فلن يفوته صفاؤه [1] .

ولعل قراء العقاد وهم يقرءون ديوانيه " أعاصير مغرب" الذى نظمـه وهو فى الثانية والخمسين ، و "بعد الأعاصير" الذى نظمه فى الستين ، يلاحظون أنه يتغزل بفتاة يسميها تارة "بنية" ويصغر بعض الكلمات فى الحديـث إليـها إشارة إلى صغرها [2] .

وفى هذا ما يؤكد استمرار العقاد فى ولائه للحب ، الـذى رآه دينـا وعقيدة ، وفرضا مفروضا فى الحياة البشرية .

## تصوره للمرأة :

وعلى ضوء تصور العقاد للحب صدر فى تصوره للمرأة فقد راح يرسم معالم الصورة بدقة متناهية ، جمعت شتات الزوايا فى إطار واحد منسـجم مـن الجمال والكمال .

فرأيناها مثلا أعلى للجمال المفرد ، والحسن المفرد الذى لا يقاس بـه شبيه .. ولا يقارن به نظير .. بل إن الدنيا كانت شبه خالية من الجمال ، فلمـا ظهرت كانت مجتمع الحسن فى تفرده على غير مثال ، يقول :

كـان فى الدنيا جمال لا يعـد ..... ثم لحـتـا .....
فعـدونا الحسـن طـرا فهـو فرد ..... وهو أنتا

---

(1) انظر : السابق ص ١٦٨ .

(2) انظر : مطالعات وذكريات للأستاذ العوضى الوكيل ص ٦٢ .

وما دامت على هذا المستوى الفريد من البهاء ، فحقها أن تكون ملكة متوجة تباح الحسن المهيب ، الذى يضفى على صاحبه الهيبة والجلال وهى بـــه مستغنية عن خلع المهابة ، التى يستعين بها أصحاب الوجاهـــة مـــن الأمـــراء والرؤساء .. ولهذا يعلن فى شغف [1] :

يغنيك حسن أنت لابـــس تاجـــه عن هيبـــة الســـفاح والاســـكندر
يعلوك من ســـيم الجـــلال مهابـــة كالظبى يمرح فى إهـــاب القســـور

ولم لا تكون صاحبة التاج وقد اكتملت ملامح الجمال فيها ؟؟!

فاسمها غير كل الأسماء .. مكون من أحرف لها طعم حلو ، ووقـــع فى القلوب آسر .. فإذا غادرت تلك الأحرف اسمها منتظمة فى غيره من الأسمـــاء والكلمات ، فقدت حلاوتها وأسرها .

بل إن لها فى غضبها ومرحها سحر ودلال .. وبهاء وجمال ، لا يطلـــب عند غيرها . وكذلك كل شئ فيها لا شبيه له ولا نظير .

فضحكها نور .. وهى فى الروضة أحب الزهور .. كما أنها فى القفـــر ربيع ورياض وخضرة ندية .. وغاية ما يقال فيها وفى حسنها أنهـــا مـــن عـــالم الكمال تكونت . وأن حسنها قد بلغ حد التمام .. استمع إليه يقول [2] :

آه لـــو تعلـــم مـــاذا فى اسمـــه مـــن عزمـــات
أتـــرى الأحـــرف فيـــه غيرهـــا فى الكلمـــات
هاكهـــا عشـــرا وكـــرر وصفـــه العـــذب منـــات
صفـــه غضبـــان وصفـــه لاعبـــا بـــين اللـــدات

---

(1) ديوان العقاد جـ ١ ص ١٧٥ .

(2) السابق ص ١٧٨ .

ضاحكا كالصبح يمحو بالضياء الظلمات
صفه فى كل كساء صفه فى كل الجهات
هو فى الروضة إذ يمشى أحب الزهرات
وهو فى القفر رياض من هوى لا من نبات
تم والله فيا ليت به بعض الهنات
تم حتى أتعب العين بفرط الحسنات

ومن فرط تعلق العقاد بها . وقد خلق عابدا فى محراب الجمال - جعل جمالها رمزا للكمال على الأرض .. وعوضا جادت به القدرة عن كل نقص فى القلوب ، أو عيب فى النفوس .. فإذا فقد هذا العوض الفذ ، لم يعد للحياة معنى ، ولا للوجود قيمة . ولهذا راح يقول [1] :

أغلى جمالك فى النواظر أنه عوض لشين فى النفوس كثير
وأنا له منا المقادة أنه فى الأرض رمز كما لها المحظور
فإذا وقفت تودع الحسن الذى ورايته فردا بغير نظير
ودعت قلبى .. والشباب وخاطرى والحسن والدنيا وكل أثير

ولما كان لجمالها هذه المكانة ، فمن حقها أن تنعم بلقب أميرة الجمال بعد أن أنعم به عليها [2] :

أمير الجمال التم والميسم الذى وسمت به الأعناق بعد إباء

ولك أن تتخيل امرأة لها هذا الحسن الفذ .. وهذا الجمال العالى ، الذى لا يناطحه مثال على الأرض ، لأنه رمز للكمال الأسمى فوق أديمها الممتد طولا

---

(1) السابق ص ٢٩٦ .
(2) السابق ص ٣٠٧ .

وعرضا بلا حدود ، وبلا انتهاء .. كيف لا يستغنى بها عن الدنيا وما فيها من أسباب الحياة والحركة ، وما اشتملت عليه من صنوف المتاع واللذة ، التى تنعش الحواس المدركة فى الإنسان ، وتغمره بفيض السعادة .. ؟؟!

إنها جديرة بإخلاء الحياة من كل شئ على أن تبقى وحدها سلطانة على كل شئ .. ففيها تجمعت كل خصائص الأشياء !

فيها نفح الطيب .. وهناءة الظل .. ومنها النور ، والسحر والضوء ، والخمر .. وما دامت على هذه الشاكلة فليس به حاجة إلى الرياض ، ولا إلى النور ، والعطر ، والخمر لأنها تقوم بالمدد المطلوب من كل هؤلاء .. !

ألا يدل ذلك على إغراق العقاد فى تصوره لمثال الحسن المفرد ، الذى أخذ به ، وسبح بالولاء به ، وأعرب عن دخيلة نفسه تجاهه بما يبهج العين ويسعد الفؤاد ؟ فقال [1] :

شذى زهر ولا زهر ... فأين الظل والنهر

ربيع حياتنا ولى ... أمن أعطافك النشر

وهذا النور يسم لى ... عن الدنيا ويفتر

وأنظر لا أرى بدرا ... أأنت الليلة البدر ؟

وبى سكر تملكنى ... وأعجب كيف بى سكر

رددت الخمر عن شفتى ... لعل جمالك الخمر !

نعم . أنت الرحيق لنا ... وأنت النور والعطر

---

(1) السابق ص ٢٥٣ .

وأنـــت الســـحر مقتـــدرا وهـــل غـــير الهـــوى ســـحر
خـــذوا الدنيـــا بأجمعـــها حبيـــب واحـــد ذخـــر
إذا ضـــاءت مطالعـــه فكـــل سمـــائكم قفـــر
خـــذوا دنيـــاكم هـــذى فدنيـــا واتنـــا كـــثر

وإذا كان تصور العقاد للمرأة فى هذا الجانب مما ذكرنا ، لا يبعد بهـــا كثيرا عن ساحة الحسن فى عالمه الأرضى .. وما تزدحم به أرجاؤه ، من زهـــر ، ورياض ، وخمر ، وعطر ، ونور .. فقد رأيناه فى جانب آخر من زوايا التصـــور يعرج بها إلى عالم السماء .. فيستمد معالم الصورة من علوها وبهائها ، وخلوهـــا نهائيا من كل مادية ، قد تشوب تكوينها ببعض العطب .

وهذا إن دل على شئ فإنما يدلنا على سمو النظرة إلى المرأة ونقائـــها ، وشفافية الشاعر فى البحث عن مكونات ملائكية نورانية ، تتلاءم مـــع ذلـــك السمو وتلك الشفافية .

## نجد ذلك فى مثل قوله [1] :

إلـــه عـــرش الجمـــال مـــا بى يقصـــر عـــن وصفـــه خطـــابى

وكيف يتسنى لعاشق يتصور محبوبه إلها لعرش الجمال ، أن ينسحب من الولاء له وإخلاص الطاعة لجلاله ، حتى لو أصيب منه ببعض البلاء ؟ لأنه لـــو فقد حب ذلك الإله له ، أو خلت حياته منه ، لصـــارت عاقبتـــه إلى خـــراب ودمار ..... وحتى لا يعرض نفسه لذلك المآل المفجع ، راح يعلن رضاه عـــن ناره قبل نوره ، وعن سعادته بلهيبها . بل ويرجو دوامها . فيقول [2] :

---

(1) السابق ص ٢٧١ .

(2) السابق ص ٢٧١ .

إنى أشب الهيام عمرى فى قبلة القلب كالشهاب
فارمقه أو غض عنه لكن دعه على الدهر فى التهاب
ولا تحل برده سلاما فالنار خير من التراب
حبك إن أخل منه يوما خلوت فى عالم خراب

وهذا أمر طبيعى ، ونتيجة حتمية ، لكل من خالف أوامر معبوده الأعلى . حيث يترتب على تلك المخالفة فراغ القلب من محبته .. ومتى فرغ من تلك المحبة كان مصيره إلى خراب وجحيم .

ويستمر العقاد فى استنهاض الكلمات لتؤدى عنه تصوره العظيم للمرأة فى علوها .. بعد أن أعطته بحبها معنى جديداً للحياة ، لم يعثر عليه من قبل .. فهى صاحبة فضل وعطاء . أعطته ذلك المعنى الجديد الذى شعر معه بقيمة الحياة .. كما أعطت الحب الإلهي بعض فيضها من الحب .. وكست حسن السماء بحسنها العظيم .

**استمع إليه يقول [1] :**

ذاك معناك أنت حين وهبت القلب نورا من طلعة الشمس أسنى
ومنحت الحب الإلهى حبا وكسوت الحسن السماوى حسنا

**- وهى لذلك أيضا نسيم الخلد ولحن السماء .**

يا نسيم الخلد فى وادى الفناء يا ندى الجنة .. يا لحن السماء [2]

---

(1) السابق ص ٣٤٥ .
(2) السابق ص ٢٧١ .

- وثغرها هو الكوثر .. [1]

أيـــها البـــاحث عـــن كوثـــــره  فى الســـماوات لقـــد شـــط المـــزار
إنمـــا الكوثـــر ثغـــــر باســـــم  من حبيـــب لـــك مـــأمون النفـــار
هـــو إن شـــئت سمـــاوى الغـــنى  وهـــو إن شـــئت سمـــاوى الديـــار

- وهى نور والهام [2] .

هى نـــور مـــن الســـماء وظـــل  وارف للجمـــــال والإلهـــــام

- ومصدر وحى وحورية من الجنة [3] :

حوريـــة الوحـــى الـــتى رقمـــت  طرســـى بوســـم بنانهـــا الغـــــر
هى من بنات الحـــور مـــا بلغـــت  شـــأويك فى حســـن ولا قـــــدر
أوحـــت إلى بلحنـــها ومضـــــت  مـــن صمتـــها فى حيـــث لا أدرى

ويؤكد وظيفتها فى الوحى والإلهام بقوله [4] :

أعـــروس أحلامـــى وملـــــهمتى  معـــنى الحيـــاة وفتنـــة الســـــحر
كـــونى إذا مـــا شـــئت منعمـــــة  حوريـــتى فى مقبـــــل العمـــــر

وإذا نظرت إليه بلحاظها أحيت رميم الرجاء [5] .

ولحاظا تبـــوح لى وهـــى ســـكرى  بحديـــث يحـــيى رميـــم الرجـــــاء

---

(1) الـسابق ص ٣٤٣ .
(2) الـسابق ص ٦٢ .
(3) الـسابق ص ٣٦٨ .
(4) الـسابق ص ٣٦٩ .
(5) الـسابق ص ٣٣٨ .

إنها فى حياته كل شئ ، فهى الشذى ، والندى ، والفناء والصـــــدى ، وصاحبة دليل الهداية ، بل والهدى ، والنديم ، والخمر ؛ حيث يقول [1] :

هلم فـــأنت الشـــذى .. والنـــدى وأنت الفناء .. وأنـــت الصـــدى
وهـــادى أنـــت .. وأنـــت الهـــدى وأنت النـــديم .. وأنـــت الســـكر

وإلى جانب ذلك نراها قرة العين والقلب [2] وصاحبـــة العصمـــة .. والمبرأة الكاملة التى خلت من كل عيب [3] وفى نورها الكفاية والهداية [4] ولهذا فهو على استعداد لأن يبيع حظه من السماء ، إذا ما تفضلت عليه بنظـــره .. ولا يسوءه أن يعلن ذلك على الدنيا بقوله [5] :

يا نظرة منك عن قرب أبيع بهـــا حظ السماء أطلى واهبطى وصلـــى

فلا عجب إذن ، أن نراه مأخوذا بحبه لها ، منشغلا بـــها عن كل مـــا سواها ، ومن عداها ، من جماعة العقلاء وغير العقلاء من مخلوقات الله ، تسـرى فى عروقه سريان الدم ، وتحيا فى قلبه حياة الروح ، فى تلاحم لا انفكاك لـــه ، وامتزاج لا انفصال فيه .. وكأنهما وحدهما فى ملك الله .. وكأن الله لم يخلـق فى الوجود إلا هما .. ولذلك فهى معه فى غفوته وسهده .. وفى مسائه وصباحـه .. لا شئ فى خاطره إلا هى .. فى حالة من الفناء فى الذات ، نعرفها عند المتصوفة ، ممن ارتقوا فى معارج الوصول إلى أعلى المقامات .

---

(1) السابق ص ١٢٣ .
(2) انظر السابق ص ١٤٠ .
(3) انظر السابق ص ٢٩٠ .
(4) انظر السابق ص ٣٥٦ .
(5) السابق ص ٣٤٧ .

وهذا يدل على أن العقاد عاش تجربة الحب بكل نبضة من نبضاتـــــه ، حتى أضحى سلطان من يحب عليه أقوى من كل سلطان ، وألزم من كل تسـلط خضع لمشيئة بالسيف أو باليان ..

ومن هنا لا يحق لنا أن نفزع إذا وجدناه يشبه هذا الولاء بينه وبين مـــن يحب ، بطبيعة العلاقة بين العابد والمعبود . ففى كل من الولاءيـــن استســـلام وخضوع .

وإذا كنت فى شك من أمر هذا الشاعر فيما صدر عنه من فناء فيمـــن يحب فاقرأ معى قوله [1] :

لهجت بحســـنك الســـن وخواطـــر وصبت إليـــك جوانـــح ونواظـــر
وجرى غرامك فى دمـــى فتوهجـــت قطراته .. فـــهو الحميـــم الغـــائر
وشـــغلتنى عمـــا يحـــب كأنمـــا هذا الوجود علـــى جمـــالك دائـــر
ونسيت فيك الخلـــق فـــهو كأنـــه لمـــا يصـــوره الالـــه الفـــاطر
لازمتـــنى فى غفوتـــى وتســـهدى طيـــف يســـاور أو ســـواد عـــابر
أمسى وأصبح مـــا بقلـــبى جـــانب منى وفيه لـــك الجنـــاب العـــامر
فإذا صحـــوت فـــأنت أول خـــاطر وإذا غفـــا جنـــى فـــأنت الآخـــر
أو يعبـــد الإنســـان واعجبـــا لـــه حبا ومـــا هـــو بالعبـــادة شـــاعر

وينطلق فى تصوره لصاحبه السلطان خارج حدود المكان والزمـــان ، إذ هى بما أضفاه عليها من محاسن أرضية أو سماوية جديرة بأن تعرف وأن يســـعى إليها .. فإذا لم يجدها تدب على الأرض فيمن يدبون .. ولا فى السماء بين مـــن

---

(1) السابق ص ٢٠٧ .

يعرجون .. لتعرفت عليها روحه مخترقة كل الأسباب ، ماضية فى سعيها إليـــها دون أن يحول بينها وبين الوصول حجاب .. يقول [1] :

أخالك لو نشـــأت بغـــير أرضـــى وفى جيـــل تقـــدم غـــير جيلـــى
لحن إليـــك مـــن حـــب فـــؤادى وطال عليك مـــن شـــوق غليلـــى

إن العقاد بهذا التخيل الرائع ، وبكل ما عرضنا من زوايا تصوره للمرأة التى خضع لها بهواه . يطلعنا على نموذج فذ فى الجمال ، خلقته تصوراته للمـــرأة المحبوبة .. وهو تصور يغذى فطرته فى هيامه بالجمال ، وولعه به ، وقـــد كـــان ذلك مظهرا من مظاهر الإحساس الرقيق ، ودليلا على صفاء الروح ونقائها .

فقد هام بكل ما هو جميل .. وكانت المرأة هيامه الغالى ، وأغلى محاســن الدنيا المشهورة .. حتى أصبح لا يرى الدنيا إلا من خلال العيون الجميلة .

لا أرى الدنيا على نـــور الضحـــى حبذا الدنيا على نـــــور العيـــون [2]

ولهذا انـــهزم أمام سلطانها ، وهو العملاق الذى لم يعرف فى حياته غير الشموخ والإباء .. ولم لا ينهزم وقد خلق بفطرة حب الجمـــــال ، وللجمـــال سطوة تهتز لها القلوب .. وتلين ، وتخضع وتستكين ؟! وسوف يكون أكثر بيانـا وأفصح لسانا كلما رأى صنعة الله البديعة تعطر الحياة . يقول :

نحن قوم يا حبيبتى قد خلقنا للجمال
إن أجاد الله فى الخلق أجدنا فى المقال

ولا يسعنا بعد هذا التجوال فى رحاب الجمال ، وحول الصورة المثاليـــة العالية التى خلقتها تصورات العقاد للمرأة ، وللحب ، إلا أن نؤكد أن الرجـــل

---

(1) السابق ص ٣٤٧ .

(2) السابق ص ٤٣٦ .

عاش تجربة العشق على أرض الواقع محوطة بوشى الأحلام ، وشعشعة الغرام ، عاش التجربة متأثرا إلى حد كبير بثقافته الرومانسية .

فقد وجدنا عنده أن الحديث عن المرأة لم يعد وصفا غزليا فارغ المضمون والقيمة .. وإنما اصبح وشوشة قلب ، وحديث نفس ، وهيام روح ، وتعبيرا عن وجد وضنى ، وسعد ومنى ..

يصدر فيه عن ذاتيته ، وأحاسيس نفسه وجراحاتها ، وما تعانيه من آلام وأوجاع .. أو ما تسعد به من آمال وأحلام .. شأنه فى ذلك شأن الرومانسيين .

فقد رأيناه إذا غاب محبوبه عنه ، يشده الشوق والحنين إليه فى لهفة عنيفة . وهياج عاطفى شديد .. حتى إنه وهو الأسد الهصور ، والعملاق العظيم يصير إلى حالة من الوجد لا يستقر معه على حال .. ولا يهدأ له فى أمره بال .

ونستطيع أن نشعر بذلك ، ونحس به إذا قرأنا قوله [1] :

غريبة الدار عند النيل تذكرة ... من وامق فى رب لبنان مغترب

بتنا بديلين والدنيا تبدلنا ... فيا لنا من شريكى موطن عجب

كلاهما نازح فى دار صاحبه ... وداره فى الهوى موصولة النسب

يا بنت لبنان أقريك التحية من ... هضاب لبنان بين البحر والشهب

أمسيت ضيفك فى ارض لبست بها ... وشى الصبا وبرود الحسن والطرب

أرى مثالك فيها حيثما طمحت ... عينى وأخلوا به فى كل مرتقب

وتهيج نفسه شوقا ويزداد لهفة عندما يذوق طعم التفاح اللبنانى فيذكر حسنها ، وشبابها ، وربيع حياتها .. وقد بلغ من روعة التعبير مبلغا جعله

---

(1) السابق ص ٣٥٩-٣٦٠ .

عابدا فى محراب من الجمال . رقيقا كل الرقة فى شدوه وشعره ، حتى كاد يذوب من رقته وجدا وشوقا .. وذلك حين يقول [1] :

"سعاد" تفاحك المعسول أطعمنى من جنة الخلد أو من روضة الحلم
تفاح حواء إلا أن ذاك محا ملك النعيم وهذا جالب النعم
وجدت حلواه فى قلبى وفى نظرى وما احتوته يدى أو ذاق منه فمى
أذوقه وهيام الشوق يوهمنى أنى أذوق الجنى من ثغرك الشبم
يا جنة القلب كم لى فيك من ثمر سقاه صوب الهوى لا عارض الديم
حسن وحب وتفاح وفاكهة هذا النعيم الذى نبئت فى القدم

ويبدو أن فاتنة لبنان "مى" التى عاشت على أرض مصر قد ملكت لبه وقلبه فجعلته يرقى بعاطفته إلى درجة لا يسمو إليها وجدان محب بين المعاصرين حتى قال الدكتور عبد الفتاح الديدى " إن هذه الفتاة لعبت أخطر دور فى حياة العقاد ، لأنها أعطته من السعادة ما لم يكن يخطر له على بال " [2] .

فقد عاش معها ألوانا من الود سعيداً بما يجنى من ثمار الهوى فى نشوة عجيبة أسمى من كل لذة تأتى بها متع الحياة .. إن كان فى الحياة حساب للذائذ والمتع ، يشبع فى الإنسان ما يطلب من نعيم وسعادة ، لا يكدر صفوها عائق من آلام .. أو حاجز من عاديات أهل الزمان .

وقد تجلى التعبير عن تلك الحالة من السعادة ، فى وشى بديع مفصح عن صبابة عاشق ، جمعته أمسيات الشوق مع من يحب إطلالة قدرية رعت هواه .. وباركت سعيه وخطاه ، فصدر عن شعر أثير يقول فيه [3] :

---

(1) السابق ص ٣٦١ .
(2) انظر : عبقرية العقاد ص ١٠٢ .
(3) السابق ص ٩٢ .

وألثمه كيما أبرد غلتى وهيهات لا تلقى مع النار راويا
فقبلت كفيه وقبلت ثغره وقبلت خديه وما زلت صاديا ..
كأنا نزود البين بالقرب بيننا فنشتد من خوف الفراق تدانيا
كأن فؤادى طائر عاد إلفه إليه فأمسى آخر الليل شاديا
إذا ما تضامنا ليسكن خفقه ترى فيزداد الخفوق تواليا
أو شج فى كلتا يديه رواجبى وشيجا يظل الدهر أخضر ناميا
وتلمس كفى شعره فكأننى أعارض سلسالا من الماء صافيا
وأشكوه ما يجنى فينفر غاضبا وأعطفه نحوى فيعطف راضيا
أقول له يكفيك أنك قادر على أمل أعيا الزمان المعاديا
قدرت على إسعادنا ومنحتنا ليالى أعيا منحهن الليالياً

فأنت تراه يسجل مشاعره بكل دقة ، فى موقف مشحون بالعواطف وقد جمعه لقاء ليلى مع من يحب .. لقاء تزداد فيه خفقات القلوب .. وتترجم فيه آهات الجوى كلمات العتاب ، وقد صدرت شفافة أنيقة ، تسطر آيات السعادة للمحب ، الذى تمكن محبوبه من إسعاده ، فى ليلة تعجز كل الليالى عن توفير نصيبه منها .. وإنها لسعادة ممتدة فى كل الليالى والأيام .

فإذا حدث ما يعكر تلك السعادة ويوقف مدها فى جنبات حياته ، انقلب على عقبيه ، وراح يعلن أساه .. ويؤكد وجده فى هواه .

فقد حدث أن رأى دموع صاحبة العظمة فى دولة العشق تسح على خديها دون سابق إنذار .. فرق قلبه ، واضطربت نفسه ، وبدا حزنه أليما .. وتحولت الحياة إلى غصة .. ولم تهدأ خواطره تجاه ما رأى .. ولم يعد يدرى كيف يمسح تلك الدموع .. ؟ ولا كيف يوقف مد ذلك الحزن الذى كسا وجهها

البهى ..؟ إلا أن يعلن أنه لو كان فى مقدوره أن يغير من طبـــائع الأشـــياء .. ويملك كل وسائل الإرادة ، لجمع لها من ذخائر الأيام كل ما عرفته من ســـرور وابتسام ، ليعيد لصاحبه الوجه البهى بسمة الأمل ، التى توارت خلف ســـحب الدموع ، وليعيد للحب مكانته فى قلبها ، بعد أن كادت تحطمه هواجس الشك والظنون ، التى تولدت لديها عندما رأت بجواره امرأة فى مقر عملـــه بجريـــدة "البلاغ" .. كانت فى حسابها مجرد واحدة من النساء ، لا حظوة لهـــا عنـــده . فأخطأت التقدير .. وجانبت الصواب ، ولم تستطع - من فرط ألمها - التميـــز بين ما تكون عليه الحظوة المدفوعة بالإعجاب ، وبين ما تكون عليه لوعة العشق فى رحاب الأحباب .. فارتجفت من هول الصدمة ، وتساقطت من عينيها حبات من اللؤلؤ ، أشعلت فى قلبه حرائق ممتدة لا يطفئها ماء السماء .

وتستطيع أن تدرك نار تلك الحرائق ، وتشعر بلهيبها من خلال قوله [1] :

تبكـين والهـف الفـؤاد يذيبـه ذاك الحنـين يـذوب فى خديـك
أيراك باكيـة .. وأنـت ضيـاؤه ونعيـم عيشـى كلـه بيديـك
وعزيزة تلـك الدمـوع فليتـها يقنـو قطيرهـا نظيـم سـليك
لملأت ثم يـدى بـأكرم جوهـر من عطف قلبك فاض مـن عينيـك
لو أستطيع جمعـت كـل ذخـيرة فى الدهر من ضحك يـروق لديـك

إن العقاد فى هذا الموقف رقيق المشاعر ، مرهـف الإحسـاس تخـرج الكلمات من قلبه النابض بالحب والحياة ، معبرة عـن شـجوه وحزنـه .. فى حديث يغذى صبابة الروح ، ويدغدغ المشاعر والأحاسيس ، ويسمو بهـا إلى آفاق عالية ، فى عالم كل ما فيه يغنى لواعج الحب ، وأناشيد الحياة .

---

(1) السابق ص ٣٣٠ - ٣٣١ .

ولم لا يجمع كل ذخائر السرور لها ، وهى التى يرى نعمة الحيـــاة مـــن خلالها .. ؟

فإذا كان الناس يتعرفون على مطالع الشـــهور والأعـــوام والشـــمس والقمر ، من ظهور الهلال وإشراق الشمس .. فإنه ليس على طريقتهم فيمـــا يعرفون .. بل يطالع ذلك ويتعرف عليه ، من وجه محبوبته ، وقد صارت هـــى الزمان ، والمكان ، والحياة .

فالنور ، والظلام .. وهبات النسيم .. ولفح الهجير .. وهياج الريـــاح يتمثل فى منطق الرضا والغضب .. وفيما يسفر عنه وجه الحبيب مـــن إقبـــال وإدبار ..

وإذا كانت أعياد الناس محكومة بالمناسبات الدينية والتاريخية .. فأعياده تترى كلما لاحت بسمة الأمل فى وجه من يحب .. تلك البسمة الـــتى تعطـــر الوجود ، وتوحد بين العابد والمعبود ..

وما دام الأمر على ذلك فى كل أحواله .. فلا بأس عليه فى أن يعلن[1] :

نســـيت التواريـــــخ إلا الـــتى ... تعـــود بذكـــرك لى راويـــــة
فـــأنت الزمـــان وأنـــت المكـــا ... ن .. وأنت غنى النفس يـــا غانيـــة
ولست أعـــد حســـاب السنـــ ... ين بـــل بالشـــمس طالعـــة خافيـــة
ولكـــن بوجـــهك لى مقبـــلا ... ونظرتـــك الحلـــوة الســـاجية
فيـــوم الرضـــى عـــالم حـــافل ... مـــن الحـــب والذكـــرة الباقيـــة
ويـــوم النـــوى عـــالم مظلـــم ... تضـــل الشـــموس بـــه هاويـــة

---

(1) السابق ص ٣٥٤ .

وقد عرفت - عزيزى القارئ - أن الرجل لم تكن فى حياته امرأة واحدة .. ولا تجربة واحدة .. وإنما تعددت النساء وتعددت معها التجارب . وإذا كان قد عاش الضنى والعذاب ، كما عاش الأمل والسعادة ، فى تجربة فريدة مع "مى زيادة" .. فإنه قد تحول عنها إلى غيرها منتقلا من عالم الأمل الباسم ، إلى عالم اليأس الحزين .. عندما استيقظ من أحلامه الرومانسية على صبح جديد رأى فيه المرأة شبحا مخيفاً وأفعى خالدة ، تتلون لكل حالة بما يناسبها من ألوان الثياب .. ففقد الأمن والقرار ، وعرفت الظنون طريقها إلى قلبه ، وملأ اليأس شغاف نفسه فكاد أن يحطمه .

وكان قد أحب " سارة " وهى امرأة لعوب .. لم تقدر هواه .. ولم تتبع على طريق الحب خطاه .. وإنما تذهب فى كل اتجاه تيسرت لها فيه متعة الجسد ، مولية ظهرها إليه ، غير عابئة بمذهبه فى الحب ، ولا بنظرته السامية للمرأة ..

وكان ذلك كفيلا بتمزيق فؤاده وإلهاب نفسه بنار الشك والريبة .. فيرفض الحب والأحباب .. ويأسى لأيام خلت كان الحب فيها هو الرداء والرواء .

نجد ذلك فى نفثة مصدور عبر فيها عن ظنونه وأساه بقوله [1] :

يوم الظنون صدعت فيك تجلدى ... وحملت فيك الضيم مغلول اليد

وبكيت كالطفل الذليل أنا الذى ... ما لان فى صعب الحوادث مقودى

وغصصت بالماء الذى أعددته ... للرى فى قفر الحياة المجهد

لاقيت أهوال الشدائد كلها ... حتى طغت فلقيت ما لم أعهد

---

(1) السابق ص ٣٦٢ .

نـــار الجحيـــم إلى غـــير ذميمـــــة وخذى إليك مصـــارعى فى مرقـــد
حيران أنظر فى الســـماء وفى الـــثرى وأذوق طعم الموت غـــير مصـــرد
أروى وأظمأ عذب ما أنـــا شـــارب فى حـــالتى نقيـــع ســـم الأســـود

وإنها لقسوة أليمة أن تغرق فى الحب إلى أذنيك ، مفعمـــا بـــالإخلاص والولاء .. ثم تكتشف فجأة أن من تهواه لا يهواك .. على الرغم من ظـــاهره الودود ، ورونقه الفريد ، وحديثه الملئ بالمشاعر والخواطـــر عـــن الإخـــلاص والوفاء .. حتى إذا انكشف الزيف ، وبانت المغالطة ، وبدا الخـــداع .. كـــان الانتكاس وكانت الآلام .

وفى ظل انتكاس المثل يعرف الرومانسيون طريقهم إلى الأحزان وتتبـدل أمامهم طبائع الأشياء فيلعقون المر غصصا حارقة . تحرق كل ما تختزنه الذاكـرة من أفراح ونعيم ، ولا يبقى إلا اليأس المقيم ، والغربة القاتلة .

وقد انقلبت موازين الأمور عند العقاد حتى أنكر نفسه وحبه .. واتخـذ لنفسه مكانا بعيدا عنها وعن الناس ، لائذا بالفرار من عالم اختلت فيـــه القيـــم وتبدلت الموازين .. وكان إذا رآها أنكرها .. وقد كانت بـــالأمس القريـــب أنشودة السعادة .. وبسمة الأمل .. وربيع الحياة .

## استمع إليه يقول [1] :

فيـــم اجتنبـــاك ظلـــها الممـــدودا ولم اتقـــاؤك يومـــها المعـــــهودا
ولأى طارقـــة تركـــت مزارهـــا وذممـــت طالعـــه وكـــان حميـــدا
تلك المآلف كنت هتـــف باسمـــها كيف اجتويت جنابهـــا الممـــهودا

---

(1) السابق ص ٣٤٩ .

تخشى اللمام بما وتفزع أن ترى شفة تردد ذكرها ترديدا
كانت سماؤكما فأصبح وردها كالقبر يغشاه الترب وحيدا
وغدت كأنك حين تقبل واجد شبحا هنالك للنعيم شريدا

وقد عرفت فيما سبق أن العقاد نزه نفسه فى حبه للمرأة عن المتعة واللهو أو النظر إليها بعين الشهوة .. فقد كان يحبها روحا ونورا وسموا فوق مطالب الحس كمذهب الرومانسيين .. ولو كان الحس مطلبه فى المرأة ، لكان فى غنى عن العويل والبكاء عندما افتقد فيها المثالية التى كان ينشدها .. والتى كانت عينه لا ترى سواها فى المرأة مطلبا ورجاء .

ومما يؤكد سمو النزوع الرومانسى عنده أن "سارة" عرضت عليه نفسها كامرأة قانعة منه بما يرضاه غيره من الرجال .. فرفض وأنكر ، وأعوض وأدبر . وقال [1] :

تريدين أن أرضى بك اليوم للهوى وأرتاد فيك اللهو بعد التعبد
وألقاك جسما مستباحا وطالما لقيتك جم الخوف جم التردد
رويدك إنى لا أراك مليئة بلذة جثمان ولا طيب مشهد
جمالك سم فى الضلوع وعثرة ترد مهاد الصفو غير ممهد
إذا لم يكن بد من الحان والطلى ففى غير بيت كان بالأمس منسجدى

وقد كان الرومانسيون إذا تحطم هيكل الحب المقدس فى قلوبهم ، تهاوت كل ملامح السعادة فى الحياة .. وحل الجدب والقفر والحرمان محل السرور والسعادة والابتسام .. وهذا وحده كفيل بتمزيق القلب ، وإشاعة جو من الأسى فى حياتهم وأشعارهم على السواء .

---

(1) السابق ص ٣٦٦-٣٦٧ .

ومن هنا رأينا العقاد يرفض واقعه الأليم ، ويشتد فى يأسه الحزين ، بعد أن عاش ألم التجربة وعذاب الانتكاس ، ولم يملك إلا أن يصرخ ويتوجع من الحياة والناس ، مستغيثا بالموت .. فبه وحده يكون الخلاص من الأوجاع والآلام ..

وقد وشى به شعره فى زفرة من زفرات الألم عندما قال [1] :

ظمان .. ظمآن لا صوب الغمام ولا عذب المدام .. ولا الأنواء ترديني
حيران .. حيران لا نجم السماء ولا معالم الأرض فى الغماء تهديني
يقظان .. يقظان .. لا طيب الرقاديدا نيني .. ولا سمر السمار يلهيني
غصان .. غصان .. لا الأوجاع تبليني ولا الكوارث والأشجان تبكيني
شعرى دموعى وما بالشعر من عوض عن الدموع نفاها جفن محزون
يا سوء ما أبقت الدنيا لمغتبط على المدامع أجفان المساكين
هم أطلقوا الحزن فارتاحت جوانحهم وما استرحت بحزن فى مدفون
أسوان .. أسوان .. لاطب الأساة ولا سحر الرقاة من اللأواء يشفيني
سأمان سأمان لا صفو الحياة ولا عجائب القدر المكنون تعنيني
أصاحب لا قلب فيسعدنى على الزمان ولا خل فيأسونى
يديك فامح ضنى يا موت فى كبدى فلست تمحوه إلا حين تمحونى

وليس بعد هذا الإعلان إعلان عن غربة فظيعة ، عاشها الشاعر على اثر تجربة حزينة ، سقط فيها المثال أمام عين شاعر ينشد الكمال فى الحب .. وفى الحياة . ويتصور المرأة عالية فى سمائها وسموها ، قانعا بهذا التصور فى كل تجربة عانقت قلبه ، وخفق بها فؤاده .

---

(1) السابق ص ٢٢٦ .

حتى إذا رأى ذلك المثال يتهاوى .. وتتهاوى معه كل الأحلام ، فى مستنقع من الإثم والدنس .. وهو على دينه فى الحب - ما زال محكوما بعقيدة الطهر والوفاء ..... إنه عندما رأى ذلك حزن وبكى ، واستبكى معه كل المثاليين ، معلنا عن غربته ويأسه ، بأسلوب تبدت فيه معالم الظمأ والحيرة والسأم .. حتى إنه من فرط حزنه واساه .. راح يطلب الموت راحة أبدية ، من هذه الحياة .

وقد كان ارتباط الفشل فى الحب بالموت ، إعلانا عن طلب الخلاص وتعبيرا عن الغربة عن الرومانسيين ، نتيجة لفقدهم معالم أحلامهم وآمالهم فى واقعهم .. فباتوا ينشدون الموت راحة أبدية ينعمون فيها بالسعادة ، بعيدا عن هذا العالم الموبوء .